# أبيقور

> وأرسطبس له في اللذة مقالة تباين مقالة أنتيثنس ، ومقالة أبيقورس تباينهما معاً
>
> من « بيرهون »

بقلم سليم خياطه

ليس في الوسع الحديث الطويل عن أبيقور الالهي ، وهو ذلك الحكيم العميق العقل الذي أنشد لوقريطيوس الشاعر لمجده أغنية ملحمية بحجم سفر عادي في سبيل حقيقة الطبيعة والانسان . فما عندي له سوى خطرات من وحي اسمه وفكره وما ظفرنا به من صور النسبة .

والحق ان الكلام عنه ، رغم قلة ما أبقت عليه القرون من آثاره نفسه ، ليمتد ويتشعب ويطول جداً . أليس ان واحداً من أعجب تلامذته المتأخرين ، الراهب « غسندي » ذاته ، لم يستطع ان يكفي الرغبة في تعليم مبادئه إلا بأن يدعو كصاحب مدرسة اختصاصية فريدة في بابها ، تحت ظلال جدران « الكوليج دي فرانس » في باريس ، حيث تخرج على فكره النيّر كوكبة من النجوم اللامعة بينهم أنصع نفسين أبيقوريين ظهرا في وقتهما : موليير الروائي وفولتير الاديب ؟

وأليس ان « برنيه » ، وهو تلميذ التلميذ ، لم يستطع ان يشرح حتى غسندي ذاك إلا كما قال فرانس في « الحياة الادبية » : « برنيه هذا الذي كان يلقب بالفيلسوف الظريف ، الذي جاب سوريا ومصر والهند وفارس ، وخدم كطبيب عند اورانغ زيب ، والذي كما ذهب الى كل مكان رجع من الكل ، فكان عنده كثير ما يقول ، وكان يدرس من غير انقطاع ، وكان قد [illegible] « [illegible] دي لاسابلير » موجزاً لنظام استاذه غسندي ، وهذا الموجز لم يكن أقل من ثمانية مجلدات » ؟ فانظر ! هل سمعت ؟ ثمانية مجلدات هي موجز في تلميذ التلميذ ! ..

إذن ، فلنفتش عمّن هو بعد اوجز من ذلك . ولمن أراد شيئاً أقل كتمهيد أولي يتعرف به الى فيلسوفنا ، عليه بالكتاب الصغير البديع الذي ألفه الاسقف « فينيلون » عن فلاسفة اليونان [illegible] عليه في زمن لويس الرابع عشر (١) . في سنسيل هذه التحفة الادبية

---

(1) Fénelon-Abrégé de la Vie Des Plus Illustres Philosophes de L'Antiquité

النفيسة يتاح للقارىء العادي ان يُلمَّ بشيءٍ مقتضب سهل عن شخص ابيقور الكريم ، وبشيء من اتجاهات الآراء والنظريات العقلية العبقرية التي ظهرت فيها ونُسبت اليه مدرسته « الابيقورية » « الديموقريطية » ، تلك الآراء والنظريات التي لا تزال منذ أطلقت أجمعة آثينا الرخامية الذهبية على ألفين واربعماية سنة مقبلة من تطوّر فكر الانسان ومجتمعه حتى هذه الساعة : يثبت بعضها بتقريرات ومذاهب وتفسيرات علمية مقبولة ؛ وبعضها يكتشف لها حقائق ما لاح له من أسرارها ، وبعضها الآخر ايضاً يتجه اليها البحث بكلّ قواه لشدة دلائل الصحة فيها وصعوبة قبول التفكير الفلسفي الجدلي ( الديالكتيكي ) والمادي العلمي لسواها من النظريات والمعقولات التفسيرية لحركة الوجود وتشكلاته . من الامثلة على كل هذه الاتجاهات الرائعة بضعة التالية : الذرَّة والجوهر الفرد ، الكهرباء وتفسيرها ، عمر الارض ونظرية طبقاتها ، التطوُّر والارتقاء في مبدأي تنازع البقاء والتعاون ، حركة المادة الديالكتيكية ، الاحلام كظاهرة نفسية ومظهر عقلي ، نشوء فكرة الالوهية وتطوُّرها ، نشوء المدنية وظهور المجتمع ، الخ . الخ . . .

بيد ان كتاب فينلون ، لسوء الحظ ، غير متيسر لابناء العربية الا في طبعة مندثرة صدرت منذ مائة سنة ونيّف . إذ لا أظن أحداً ترجمه الى العربية حتى اليوم غير كاتب اسمهُ عبد الله بن حسين ، كان من « عدة » ارسلهم محمد علي باشا — على حد تعبيره — « الى الديار الفرنجية » . « شاع أمرهم في الأنام ، فحصّلوا قدراً جسيماً من اللغات والفنون ، وجلب لهم ( محمد علي باشا ) كتب العلوم الخ . . . » وقد تمّ طبع هذا الكتاب في سنة ١٢٥٢ هـ . تحت اسم « مختصر ترجمة مشاهير قدماء الفلاسفة » ، بالتنويه الى تعريبه ، لكن من دون ذكر مؤلفه ، وذلك في دار الطباعة التي أنشأها محمد علي ببولاق . على أننا نكتفي الآن بما يلزمنا من كتاب فنيلون هذا في نصه عن « أبيقور » ، وهو لا يتعدى عبارته التالية التي تترقرق في لغة صاحبها الفرنسية عذوبة الماء الزلال في ساقية الواحة او نبع الجبل . قال :

> « ابتاع أبيقور حديقةً جميلة ، وأخذ يثقفها بنفسه . فيها أنشأ مدرسته وعاش مع تلامذته حياةً حلوةً ورضيّة ، فكان يعلمهم وهو يتنزّه أو وهو يشتغل . . . لقد كان حلوَ الطبع محبّباً الى كل الناس . . . وكان يعتقد بأنهُ ليس ما هو أشرف للانسان من أن يزاول الفلسفة . »

ثم مع هذا القول الجميل لا يسعني الا ان أورد ايضاً حكم القديس اغسطينوس على أبيقور ،

حيث قال في « اعترافاته » وهو يتكلم على تفتيشه عن المبادىء والتعاليم التي ترتاح اليها نفسه ( وهي المرة الوحيدة التي يذكره فيها ) ، قال « : كنت أتحدث مع صديقيَّ « اليبيو » و « نيبريديو » عن حدّ الخير وحدّ الشر . وفي نفسي ان أبيقور هو الذي كنت أقلده غصن النخيل[1] لو لم أكن أعتقد بديمومة حياة النفس ( يقصد خلودها بعد الموت ) وبالعقوبات ( يقصد الأخروية ) على أعمالنا ، وهو الاعتقاد الذي رفضه أبيقور »[2]

إقرأ ايضاً ، بعد رجلي الكنيسة هذين ، قول المؤلف الاندلسي ، القاضي ابي القاسم بن صاعد في كتابه الظريف « طبقات الامم » . فان هذا الكاتب الذكي ، على قلة ورود المضبوط المتقن من ينبوعه في مواضيع الفلسفة اليونانية عند كتابنا الاقدمين ، قد أعطانا هو عبارة فيها من الصحة عن أبيقور بقدر ما فيها تماماً من ضوع صفحته . قال : « وأما الفرقة المسماة من الآراء التي كان يراها أصحابها في الغرض الذي كان يقصد اليه في تعلم الفلسفة ، فشيعة افيقورس[3] ، ويسمون اصحاب اللذة لانهم يرون الغرض المقصود اليهم في تعلم الفلسفة اللذة التابعة لمعرفتها »[4]

تأمل ، الآن في تينك الشهادتين الوضاءتين بحق فيلسوفنا تصدران عن رجلين صادقين من آباء الكنيسة ، وتأمل فيما وصل الى القاضي بن صاعد من خلال ركام القرون الوسطى من ناحية حقيقية عن أبيقور المجهول : هي أن « شيعته » على لغته ولغة اغلب الكتّاب السابقين حتى « مونتان » ، رأت اللذة في اللذة التابعة الى معرفة الفلسفة . ثم انظر فيما اشتهر عنهُ ووصم به عند جهلاء الادعياء وبحرّفي المعرفة وسخفاء التفلسف من سوء الصيت وشهوانية الدعوى ، حتى صار أبيقور منسوباً اليه عدواناً وتجنياً كل رقيع من مجانين متطرفي اللذات عند الرومانيين ، اولئك الذين قصّر حتى « هوراس » الشاعر في هجوهم وتهزيئهم ، وان كان هو من جمهور قد تبعهم أيضاً في إساءة فهم ذلك المعلم الكريم ، فلاك اسمه بغير حقٍّ ومرّغهُ في حظائر الخنازير

طبعاً لم يؤثر هذا الصيت المشوّه في تحريف حكم المفكرين الانسانيين الثقات الأصلاء وتقديرهم . ففرنسيس باكون ، مثلاً ، إذ جاء بذكر أبيقور في مقالته « عن الالحاد » ومقالته الاخرى « عن الوحدة في الدين » ، لا يبدي نحوه الا انكاره « التسنّي » الصفة لشهرته الفلسفية عنده ، ولا يحفظ عنهُ اشاعة الشهرة الانتهابية المشوّهة ، بل يبدو عليه الميل المكتوم بتحذر محافظٍ الى رأي أبيقور وتمنيه ، ويعلن بجرأة اعجابه العالي بقوله البديع : « ليس الكفر في رفض الاعتقاد بآلهة السواد ، بل الكفر في الاعتقاد بالآلهة ما يعتقده السواد فيها »

(١) المأثورة عن ديز الاسبقية والاولية (٢) الاعترافات — لمؤلفه الكتاب السادس

(٣) « أفيقورس » = أي أبيقور (٤) طبقات الامم — نسخة اليسوعيين ونشر لويس شيخو — بيروت ١٩١٢

غير اننا ، من جهة اخرى ، نجد ان السمعة الرديئة التي لصقت بالايقورية أثّرت حتى في مفكر مرتاب حرّ مثل مونتاين . فمع انهُ ، مثلاً ، يطرأ عليه ذكر ايقور ، في فصله الكبير « الاعتذار عن رايمون سيبون » كصاحب تأملة فلسفية تحققت صحتها في اكتشاف جزُر الهند الغربية ، فانهُ ، على جري عادته في تجولات افكاره السائحة مع كل ريح قد تصل به مكاناً او قد لا تصل ، يعود في مقاله « عن بعض ابيات لفرجيل » — في معرض الكلام عن بهيمية الشهوات ، وحديث الامبراطور الذي افتضّ عشر فتيات في ليلة واحدة والامبراطورة التي برّزتهُ في استبدال خمس وعشرين رجلاً في ليلة واحدة ايضاً — الى ذكر ما سمّاها « فرقة أيقور » كشيء من التباحة في هذا الباب مثل كلّ ما عدّد غير ذلك من كبائر وافعال !

أما نحن نعلم اليوم بأنهُ يحدث في التاريخ ان المنتسبين الى معلم انساني كبير ، او قل من ينسبون انفسهم اليه ، كثيراً ما يبدلون ويمسخون ويقلبون مبادئه ومنطق تعاليمه بحسب الهوى والمصلحة او نوع الضغط والاتجاه المادي والمعنوي والنفسي ، من عامّ يجمعهم وخاصّ يشخصهم حتى ليصبح هؤلاء المنتسبون بما يخرجون به احياناً سُبَّة كلّ عقل صافٍ وحكمة ناضجة ، وحتى ليتجلب ذلك المعلم الكبير — وهذا ما يؤسف — في نظر الكثرة التي تجهله ويصب عليها تهم مستمصيات الفروقات والتطورات والاستنتاجات ، بجلباب خزيهم ومآزمهم . لقد اشار لينين الى ظاهرة كهذه بشأن ماركس والحركة الاشتراكية من بعده في كتاب من آخر كتبه . ومن الامثلة أيضاً على حالة كهذه يسوع المسيح و « المسيحيات » التي انتسبت اليه ، ثم كذلك أيقور وعديد ممن سمّوا انفسهم أو سمّاهم سواهم « أيقوريين »

ومن الملاحظ أيضاً بخصوص أمثال هؤلاء المعلمين الكبار ان من ينتسبون اليهم ، ومن يشرحونهم ويتلاحقون عليهم ، يختلفون ويتباينون في أمرهم اكثر من تباين الحق والباطل ! بل قد تكون مسحة تباينهم كالفسحة بينهم وبين من لا يطيقون حتى سماع رنة أسمائهم . وقد يفترقون الى فرق وملل ونحل تتباغض وتتعادى وتثير — لا أقول الثورات : اي حقبات الاصلاحيات الاجتماعية والاقتصادية ، والانتفاضات الشعبية والعلمية الكبيرة ، والتطوّر الانساني الارتقائي في العلاقات والفكر والشعور والعادات — بل تثير مذابح القتل والحروب والعصبيات الثائرة الحادة ، وانواع النفاق والتنافس السياسي والاقتصادي ( والاغتنامي ) وهذه الظاهرة كانت قوية جداً وطويلة التاريخ في المسيحية ، وفي المذاهب « الروحية » التي انتشرت كمنظمات مدنية عموماً . ثم هي اصغر من ذلك ، ولكن أبلغ انضغاطاً وأسرع انفجاراً وأفضل ، على الاقل ، نتيجة انسانية ومدنية ، في الاختلافات الاشتراكية التي حصلت من حول اسم ماركس . فالاولى تسببت وعاشت بالحرب والقتال ، والثانية رافقها ما في حياة

بالاستعمار وكيانه من حرب وقتال . بيد ان من انتسبوا الى أبيقور ، ومن لم ينتسبوا ، ومن بثت فيهم الرجفة حتى رنة اسمه ، اختلف في هذه الظاهرة حالهم . فهم لم يتنابذوا فيما بينهم مصطدمين حول انشقاقات فهم لأبيقور ، ولم يشتهروا بشيء من ذلك . انهم لم يتحاربوا ولم يتقاتلوا أبداً !

سبب ذلك ان جماهير الناس ما سمعت قط حتى باسم أبيقور ، كما انه لم يكن لا في الحقيقة ولا في الفكرة المشوهة التي نسبت الى اسمه ذا قابلية على انتشار التأثير والمكانة في كل بيئة كانت ما تكون . فأبيقور على حقيقته وصفاء فلسفته يصعب ان يجد له مقعداً في بيئة أقل رقياً من جمهورية آثينا الخالدة في وقته ، والابيقورية المشوهة كعبادة ربيبة لا يعلو لها صوت الا في حلقات ضيقة ، كحلقات المتخمين حتى القيء ، الفارغي الرؤوس والقلوب ، ومن كانوا على عقليتهم ، في دور كدور انحطاط روما الامبراطورية أو بغداد العباسيين وممالك الطوائف . لذلك كان اصحاب الهوى والهوس في ابيقور ضافاً قليلين ، على الاكثر المعروف من « المتعاظمين » المتكلفين . لم يأخذوا عنه الفلسفة ، بل رأوا فيها تلطيخ به اسمه عنوان رذيلتهم وتسويغاً مبتذلاً لنفوسهم بقدر ما كانوا عليه من ابتذال

وعلى هذا ، فان اثراً لم يتضخم وينتفخ لا لابيقور ولا لهم في صلب حياتنا الماضية أو الحاضرة ، في عقل بشرية متجمهرة ، مجيشة ، مسخفة ، متحاركة بأنياب الذئب بمرو الظفر الدامي على صولجان سلطتها ورغيف أطفالها . فحظ ابيقور في خمول الصوت وقلة الاعتراف عليه عائد ، إذن ، إلى ان الاعجاب به هو الاعجاب الفلسفي والاخلاقي السلوكي السامي ، الهادىء ، المتسامح ، الذي لم يكن الا من نصيب قليلين فهموه وأحبوه ، من فوق الاجيال والاكاذيب ، حب صداقة شخصية ، لا الاعجاب الطموح ، الملتهب بنيران وجهالات الرغبات « المثالية » ، ولا توجيه وتكريم التفكير « العقائدي »[1] او « التعليمي »[2] الجامد ، المتعصي ، المتلبس الوجه بتلوينات مثالية ، المبطن القلب في الواقع بنوع تكالبية وآنية في الغرض ( لنسمها : غائية Teleologisme آنية ! .. )

لهذه العوامل فقدت حقيقة أبيقور اكثر مما ضاعت حقيقة ماركس . ولو انه كانت لفلسفة أبيقور ونظرياته — كما لافكار ماركس الفلسفية الكبرى ونظرياته الاستنتاجية الاخرى من علاقة وثيقة صارخة بمصالح الناس الآنية والمباشرة ، ولو انه كان لها مأخذه من منطقة سريعة التفتح في صلب الحياة الاجتماعية ( بل الماركسية أسرع حتى من منطقة الحياة الاجتماعية لانها مبنية

(١) ترجمة ستتبنا للفظة Dogmatic (٢) ترجمة نستعملها للفظة Doctrinaire و « التعليمي » في التفكير الحديث « كالعقائدي » في التفكير النسق

على حركتها — او بالاحرى على ما في الامكان تبينه من الخطوط العامة واتجاهها في حركتها ، إذ تهبط وتتغلغل الى اعماق العيش اليومي بمختلف الاشكال والمجاري التي تتصادم حتى كتصادم الحياة بعضها ببعض ، والتي تصبح في احتكاكها بحالة الجماهير ونسبتها ذات قابلية على توليد عواطف أهتياجية شديدة —) اذن لكانت هرعت طوائف الناس ايضاً الى أبيقور كما هرعوا الى ماركس ، ولتعلقوا به كل طرف وجماعة على وحي ما بهم ونوع حماستهم دماً وجذباً ، وشداً ونتناً ، وتقبيلاً وتخبيطاً !

لكن ماركس ، فيلسوف الثورة الصناعية والتحول الاشتراكي ، قد حظي بعصر ألصق به جمهوراً وأوسع وأكثر انتباكاً من كل عصر ، مع ان ابيقور كان في زمنه شخصية تستوقف عناية الجماهير أيضاً ( في أثناء حياته فقط ) أكثر من كل فيلسوف يوناني آخر الا « بيرهون ». ثم ان ماركس قد حظي أيضاً من الاتباع المدركين ، والمحبين المكملين له في قلب حياة زمنهم ، من لم يكن لهم من الجهل ولا من الطمع به كبير شخصي مثل الذين بلي بهم أبيقور. وأبيقور ، وان كان قد نال قسطاً من أرقى الذكاء البشري لدفع ظلمات وتجلية حقيقته ، إلا انه لم يدفع عنه أحد بمثل ما دفع هؤلاء عن ماركس ، وبمثل ما رفعوا من نبراس حقيقته من خلال ظلمات الدخان الداجي وعماء الحمق المتفشي

هذا ، وقد يستغرب ان يزعم زاعم بأن فلسفة أبيقور تعيش في الماركسية . لكنها حقيقة واضحة لكل من يفهم شيئاً من الفلسفة غير الشهرة والاسماء . وان فلسفة أبيقور تعيش فيها من وجهتي الاعتماد في النظر والتعليل على المادية وعلى « الدياليكتيكية » . وتعيش فيها ، أيضاً ، بالطبع ، بما يتجه التفكير اليه ، على هذا الاساس المزدوج عندكليهما ، من نفس النتائج والآراء والمبادىء في نفس القضايا ، وان كانت قضايا الثانية ومسائلها الفرعية تختلف أغلبها وتزيد وتتعقد كثيراً عن قضايا الاولى ومسائلها . وذلك لان العصرين مختلفان ، لان مادة البحث والمعلومات الخاصة والمتيسرة تزيد وتترتب وتتباين في ثانيهما عنها في الاول منهما ، فتنزل الماركسية لهذا السبب من ميدان التفكير الفلسفي الى أقصى ميادين الاحتكاك الواقعي بالمجتمع ، ومن ثمّ الى التحول الدياليكتيكي الحركة بحسب ما تحكم مجاري تلك الميادين ومناقشاتها في مجرى صحة النظريات وسلامة الآراء والتصورات . أما فلسفة أبيقور، وان كان هذا الاسلوب والتعليل هو أسلوبها وتعليلها بالطبع والامتياز ، الا انها ، لما بيّنا من أسباب ، تكاد تقبع في حقل التعليل والتفسير الكوني والطبيعي ، وفي مبدئية أخلاقية إنسانية عامة

لكنها على كل حال أصدق ما يأتلف ويتساوى من الاساس ( اذا لم تكن الوحيدة التي تأتلف وتتساوى ) من بين فلسفات جميع العصور السابقة مع أساس فلسفة الاشتراكية الحديثة

العلمية في المنطق والاسلوب ، ثم في الحدود الموضوعية التي تصل اليها معها في التعقل والاستنتاج وأخيراً في اعتبار أخلاقية الفرد الاجتماعية . أما الوجهة الاخلاقية السلوكية هذه عند أبيقور ، فلا أتصور المدارك وجدت أو يسهل عليها ان تجد للفرد سلوكاً أخلاقياً عملياً عيشاً في مجتمعه أفضل وأعذب وأبلغ استقامةً اجتماعية مما نلقى في أبيقورية أبيقور ، تلك الحكمة الجميلة المتمثلة في العيش والاجتهاد والرفق بالذات والانسان ، تلك المبادىء والاعتبارات في الخير والشر التي ما أمكن الا ان تفوز باطراء أي رجل صالح عادل كان ، حتى من وجد في مخيم مناكري أبيقور المذهبيين ، سواء في ذلك مخيم أعلام التقوى والنظر المسيحي او كبار المفكرين الخلقي الصميم . ومن بين كبار المفكرين هؤلاء واحد احب ابيقور بعقله وقلبه ، واحب انا أن أتحدث عنه قليلاً كتلميذ حق لذلك المعلم . هو اناتول فرانس ، الذي ترك في ميراث عالم الادب الرفيع بين اكاليل بدائعه كتاباً مجزأ صغيراً لقبه « حديقة أبيقور »

لم يرد في هذا الكتاب اسم للفيلسوف الاغريقي أو إشارة مباشرة الى أفكاره ، فيما عدا عناوين الصفحات ، غير مرتين او ثلاث . فما ذكره به في هذين المرتين او الثلاث ما جاء له في جملة من قوله : « ... في اسمى العقول ، واصفاها ، وأعذبها : في ديموقريطس ، في أبيقور ، في غسنديس »[1] ، ثم ما وضعه على لسانه في ساحة تخيلها بين الفلاسفة تجري وسط الصبّارون والآس على ضفة نهر في « هاديس » ، عالم ظلال الاموات عند اليونان ، إذ جعله يخاطب ارسطو يعرض آراء متواردة عن خلود النفس وعن الحيوان ، قائلاً :

— إيه ارسطو ! هذه النفس فيها ( اي الحيوانات ) هي مثلها عندنا فانية خاضعة للموت ، وفي ذلك سعادتها . أيتها الظلال العزيزة ! إصطبري منتظرةً في هذه الجنائن مجيء الزمن الذي تفقدين فيه تماماً ، مع فقدان الرغبة الفاسية في الحياة ، الحياة نفسها هي واوصابها . ألا فارقدي مقدماً في السلام الذي لا يعكره شيء »

وهكذا ليس هذا الكتاب سيرةً لابيقور ، ولا شرحاً ، ولا مجادلةً ولا نقاشاً ، ولم يأت فيه صاحبه حتى على لفظ اسمه إلاّ كما رأيت . وهو ، إن اردت الصحيح ، ليس الاّ حديقة أفكار لفرانس ذاته وردت عليه بروح التعقل الابيقوري وأسلوبه من غير شك ، إذ الكتاب بجملته يبيق برائحة جميلة لجوّ « ديالكتيك » ابيقوريّ ماديّ ينتج منه للمؤلف منطق متناسق وحلقة آراء تستقيم في مجموعها مع وزن ( او قل : دوزنة ) الابيقورية الفلسفية ، اي ابيقورية ابيقور لا غيره

صحيح أن حلقة آراء فرانس هذه ، وجوها العابق بديالكتيك ابيقور ، ملوّنة بأصباغ

---

(١) تجوزت في تنوين هذه الاسماء لتجنب معنى الافراد الى ما يدل على الجمع من نوع الاسم

شتى متناسقة ومتعارضة ، وفيها مزيج من نكهات كثيرة ، رؤى وظنون ، وحق وبعض واختلف فيه من معاني الابيقورية : من حقيقة ما جاء منها لابيقور وعنه ، وما ائتلف وتناسق حقيقةً مع منطق فلسفته ، في التعابير والنظرات التي يصدرها فرانس مباشرة ، او عما تستخلصه او تراه بنفسك في اثناء محاورات تدور فيها لآراء معروضة يوشك ان يتجلى فيها صحيحها الابيقوري من غير تسجيل او تنويه الى من ينسبه كلاماً ودعوة ابيقورية كالعبارة المنقولة فوق والتي وضعها فرانس ، وكأنه يتهكم ويخلط بين « زينونيا » ورومانتي او شوبنهوراً « ماكس بيرداويا » في فم ابيقور ذاته ، واخيراً الى اعبث ما تصور في الابيقورية وما ألبسته من دعوى المحبة المفرقة المنحلة للشهوات البدنية ، وتستمرئ الملذات مطلقاً كأعقل وأفضل مصرف للعيش ، وذلك فيما وضعهُ من اعترافات على لسان « قدموس » الفينيقي الخرافي ، رمز اختراع حروف الهجاء ومثال مدنية الصناعة والتجارة والزراعة الاعلى في حضارة البحر المتوسط القديمة ومطلب جبابرتها في السلطة المطلقة والانحلال برقاء تعميم صفيق ، كل هذا وارد وصحيح من أمر هذا الكتاب ، ولكنهُ يتألف من تلك المجموعة الملونة ، كما أشرنا ، مزيج واحد لونهُ صفاء النور ، صفاء منطق ابيقوري سليم لا يحتمل سوءه اظهاراً رائعاً أصيلاً لما ليس من الآراء والتعليلات مستقياً من مجرى شعاعه

غير ان في الكتاب ، عدا هذا وذاك ، محاورة تعرض النقيض الابيقوري تماماً بعبارة فنّي فرانسي ساحر ، هي آخر قطعة منهُ ، وكأنما الاديب الانساني أراد ان يرينا فلسفة معلمه القديم من معرفة صورة عن عكسها . ذلك انهُ يعرّفنا بإيجاز وتهكم رحيم الى انسان رومانتيكي النزعة « روسوي » ، ونوعاً ما شعري « برناردين دي سان بيير » ، لا أبيقوري على طول الخط . هو ناتج فذ لاواخر القرن الثامن عشر الفرنسي ، لكنهُ ظهر في أواخر التاسع عشر الفرنسي ، متأخراً ... في حساسية نفسه عن سير الزمان وعن معدّل حساسية التفكير في سبق سير الزمان لا أقل من ... سنة . وسبب ذلك ان فلسفة هذا الانسان أكثر ما تشكلت بتأثير أحوال خاصة معينة متأخرة فيه عن وقتها شذوذاً ، فأحاطت بجوانبه الشخصية بحيث ظهر اثر تغيرات قرن الثورة الصناعية عليه بعطل أفكار المدن والانكار في قرن الثورة الديموقراطية السياسية سابقه . وبكلمة أخرى من استعمال التعبير الماركسي : هو بقية باقية من الطبقة الوسطى الصغيرة الثامن عشرية الفرنسية ، او التاسع عشرية الالمانية ، او الاوائل العشرينية في سوريا ومصر العربيتين ، لكنهُ يتأتى في تمزق نفسه بحياة متغيرة في فرنسا التاسع عشرية ، فرنسة الدنيا « البلزاكية » وبيئة « مدام بوفاري » و « التربية العاطفية » الفلوبيرية

وعن هذا فنسان محاورة فرانس ، الذي هو فيلسوف لم ينجح بين الناس ، قد ضجر من

حياة المدنية ، مدنية زحف وتغيرات الثورة الصناعية واستفحالها ونوع الحياة الرأسمالية الناجمة التي خلقتها ، الحياة المدخنة الكئيبة ، يذوب فيها نوع الفرد الذي لا يشعر بنفسه الا في ظهوره وضآلة محيطه كما تضيع النملة بين فيلتها

كره صاحبنا بيتاً بليداً في صف في شارع من العاصمة ، فهجرها الى الريف . في الريف اشترى ديراً خرباً وسط عرصة تابعة له . وفي الدير عاش مع ذاته ، ناسياً كل عمل وعيش بين الناس . لا يقرأ غير الا بالصدفة ، لا يكتب ، لا يثقف حتى قطعة ارضه أو حديقته ، يتسلى ويقاوم الوقت بالكسل والنظر الطويل في معالم الهواء وغيوم السماء ، ويغذي نفسه بآراء كأنها نصائح التعزية ! فكلها تسفيه وتسخيف لكل ما يدعى او يترادف أو يقرب من اسماء مدنية وفن وثقافة وعلم وأدب ورقاء . لقد اصبح عنوان طلب البساطة في البقاء . لا يخدم شيئاً ، ولا يخدمه سوى فتاة حسناء ، متفوحة الخدين ، فارغة الرأس والقلب عنها وعن نفسه يقول لزائره :

— هي سعيدة ، وبهما تعمل فطاهرة . فان العلم والمدنية هما قد خلقا الشر الجسدي يرافقه الشر الاخلاقي . اني لا كاد اكون من السعادة مثلها ، اذ اني اكاد اكون من البلاهة مثلها . واذ اصبحت لا افكر في شيء ، فاني لم اعد أعذب نفسي . وإذ صرت لا آتي حركة ، فاني لا أخاف ان اسيء عملاً . حتى حديقتي لا اثقفها ، اشفاقاً من ان آتم فعلاً لا استطيع ان احسب نتائجه . وفي هذه الحالة اراني على تمام الاطمئنان »

فهذا الشخص ، كما ترى ، « روسو الجديد » يتكلم ، وان كان اصح كثيراً من روسو الشيق . وانما هو في نفس الحالة التي يهرب ويظن نفسه ينجي منها كما نرى من خبث دعابة فرانس . واذا قابلنا مثاله بأبيقور وجدنا ابيقور رجلاً واقعياً متدنياً لا ينكر الحمية ويتحفظ كالمومياء . هو يثقف عقله وحديقته يومياً ، ويبارز الفلاسفة ، ويعلم الناس . يعلمهم وربما بدون اجرة ، ويقدم حتى نفسه مثلاً . يعلم بأن على الانسان — لا قدرة فقط ، بل حق شاء أم ابى وبالرغم مما في فكره — ان يعتني بحديقته . والا ، فالنتيجة الطبيعية : من ان يأكل ؟ ومن بعض فرط ألم الانسان هل يخلص ؟ عادياً متعادلاً ، حساساً ممتازاً ، ولد هذا المخلوق . ومن غابات المعجزة وكهوف السباع فقيراً خرج ، لا طعام على مائدته ولا حائط يقيه العاصفة . وليس كل من جادت به امه في مدينة مكروهة بصاحب ثروة ، موروثة او « مرسلة » او متعوب عليها ، فيشتري بشيء منها ولو ديراً مهجوراً مرصفاً سهلة ، ويكتري ولو فتاة بلهاء تطبخ له الزاد وتريه وجه المرأة

وهكذا ترى . فصاحبنا الذي سيعكس فرانس أفكاره دون أفكاره ، كنوع مبالغ في عقلية الرهبنة الاعتزالية التي تتوارى في وكرها إما لترضى الحياة وخرابها . كما أشار فرانس في

« حديقة أبيقور » الى حدوث ذلك في سبب ازدهار الرهبنة بانهيار امبراطورية روما ومعها جميع بنيان مدنية العالم القديم وأس الحياة فيه ، وإما لنفس منهوكة ، عَيِيَّة ، شاذة ، متقزّزة مُغرقة في توتّراتها العصبية مما يحيط بها ، كما يظهر في اتجاه الافكار الروسوية ، وإما أخيراً بتأثير نواح معتدلة من كلتي هاتين الحالتين معاً كما هو ظاهر في متفلسف فرانس هذا ، الذي مثاله الهرب من المخلوق البشري : التخاذل عن كل عمل ، الكسل الابدي اللذيذ ، روحه ذات أصرة — على وهن خيطها — بالروح المدمية المقتولة في بعض متشردي قصص مكسيم غوركي ، برغم الفرق الكبير بينهم وبينهُ انهم في حركة أبدية قاتمة محزنة ، وهو في سكون أبديٍّ مخدِّر

على أن فرانس قد خرق منطق صاحبه هذا بطمأنينة النجلاء ، فبدّد ما اوردت لهُ من كلماته فوق كما تبدّد نفحة نسيم يجري من ارخبيل الاغريق شتات غيوم قطنية مندوفة في سماء صافية وذلك حيث يردُّ عليه ، في محادثتهما التالية ، بقوله :

— لو كنت في محلّك لما شعرت بطمأنينة . من قال لك ، يا صديقي ، بأن سكونك الى هذا الدير المغطى بالطحلب والبلاب ليس هو عملاً ذا شأنٍ في مجرى الانسانية اعظم من مكتشفات جميع العلماء ، وذا تأثير حقيقة في المستقبل ؟ — ليس هذا بالمحتمل

— بل ليس بالمستحيل ! فأنت تعيش حياةً فريدة . انت تتحدث بكلمات غريبة قد يمكن ان تجمع وتطبع للنشر . وفي بعض الظروف لا يلزم اكثر من ذلك لكي تصبح ، بالرغم منك وحتى من دون ان يكون لك اي علم بالامر ، مؤسس دين يصبح إيمان ملايين من الناس ، فيجعلهم نساكاً واولياء ، ويذبحون باسمك الوفاً من خلق آخرين ! . .

— إذن على الانسان ان يموت كي يطمئن ويكون بريئاً

— حذار من هذا ايضاً : في عملية الموت إتمام فعل ذي نتيجة لا يمكن حسبان مداها ! »

هكذا جمل هذا المداعب الكبير فرانس ، هذا الايقوريّ الأصيل ، المتسربل بجُبَّةٍ موروثة في نفس الانسان عن عبقرية اخرى من اليونانيين ، عبقرية « بيرهون » ، ذلك الكاهن الاعلى في هيكل الشكوكيين ، ذلك الذي « كان ابيقورس ، في لغة معرب فينيلون ، يحب محادثته ومكالمتهُ ويلتذ بسماع قصة معيشته واحواله » — اقول : هكذا جمل أناتول فرانس الايقوري البيرهوني في نفس الرجل الساذج محدّثه « مرساباً » بعد اكثر مما كان قد بلغ به . ما ابدع وارقّ نكتة فلسفته ! ألا ان عبيراً حلواً من نفس ابيقور يفوح عليها !

ولا غرو ، فإن هذا الشيخ الاشتراكي الرحيم قد كان ، فيما نعلم ، آخر وابدع كاتب لمع في عصرنا ولا يضير سمعة ابيقور انتسابه اليه ، ولا حديقته تتفيئه فيها وتطلبه بين شكول ازهارها ، تحت فواكه غصونها وهنيات ظلالها الوئيدة الميول